



أوراق علمية (13)

الوَحْيُ وَدَعاوَى الحداثِيِّين

(أركون أنموذجا)

إعداد : هيئة التحرير بمركز سلف للبحوث والدراسات

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه..

أما بعد، فإن المنهج السلفي الإسلامي كمنظومة فكرية متكاملة يعتبر من أقوى المناهج صمودا في وجه ما يعتريه من عوارض تريد تحريفه أو تحويره أو تطويعه لغيره، فقد تعايش رعيلها الأول مع يهود المدينة وحافَظ على معتقداته وأفكاره وسلوكياته، ثمَّ لما فُتحت الأمصار انتشر الصّحابة رضوان الله عليهم يبثُّون في الناس نور الرسالة الإلهية، ونسائم السنة النبوية، استطاعت أن تصنع من شتى العقولِ نوابغَ للإسلام، وتنهضَ بالأمة وتُمسك الزِّمام.

وإنك إذا أنعمتَ النظر في التاريخ، تراءى لك كيف صمَد المنهج الإسلامي أمام الفكرِ الفارسي الذي لا خلاف في دهائِه، بل تعايشَ معه وأخرج من قلب الكيان الفارسي جهابذة الإسلام.

كما نجح هذا المنهج أيضا في مواجهة الفِكر اليوناني الفلسفي رُغْم خطورته ووُعُورته الجارفة، ووقوفِ كثير من المنتسبين إلى الفكر الإسلامي في صفِّه، ولكن لم تَتَكلّل تلك المحاولات الكلامية بالنجاح أيضا؛ ذلك أنّ الله عز وجلَّ حافظٌ دينه وشرعه سواء نصوصه ومعانيه؛ بتسخير العلماء الربانيين الذين يذبُّون عن كتابه وسنَّة نبيه عليه الصلاة والسلام، وينفون عنهما تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين(١).

واليوم يعيش الفكر الإسلامي صراعًا حاميًا مع الفكر الغربي المادي، وكالعادة تبَنَّى بعضُ مَن في الدَّاخل الإسلامي هذا الصِّراع؛ ومن أولئك الحداثيون الذين تشرَّبوا أفكار أصحابهم الغربيين، وراحوا يطوِّعون النصوص والمفاهيم الإسلامية لتلك المفاهيم الغربية الجافة.

وفي هذه الورقة سنبرز إحدى مُحاولات الحداثيين تلك، ونتناولها بالبحث وهي (مسألة الوحي) بدءًا ببيان المعنى الحقِّ للوحي، على ما فَهِمهُ السَّلف، وكشف زخرف الحداثيين الذين

(١) رواه البيهقي في سننه (١٠/٢٠٩)، حديث رقم (٢٠٧٠٠) وصححه الألباني.

حرفوا هذا المفهوم عن مراده وطوّعوه للفلسفة الغربية، مكتفين في ذلك بالإشارة عن العبارة، وبالبرهان عن العيان.

وجعلنا الضوء مُسلَّطًا على (أركون)؛ لأنه يُعتبر أبرز من أظهر انتقاد المفهوم السلفي للوحي، وحاول تطويع معناه للفكر الحداثي الغربي، وتقديم مفاهيم جديدة للوحي غير المفهوم التقليدي (السلفي) على حد تعبيره(١).

ومما يشدُّ حماستنا على كتابة هذه الورقة، أن هؤلاء الحداثيين يظهرون الإيمان بالوحي المنزّل من الله تعالى إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، يقول محمد أركون: "القرآن نفسه يلحُّ على وجود كلام إلهي أزلي لا نهائي محفوظ في أم الكتاب"(٢)، وقول نصر حامد أبو زيد: "الإيمان بالمصدر الإلهي للنص ومن ثَم لإمكانية أي وجود سابق لوجوده العيني في الواقع والثقافة أمر لا يتعارض مع تحليل النص من خلال فهم الثقافة التي ينتمي إليها... إن ألوهية مصدر النص لا تنفي واقعية محتواه"(٣)، ولكنهم في حقيقة أمرهم ينزِعون من الوحي والنبوة أخص خصائصها، ويخلطون السُّم في العسل.

وتقشعرُّ جلود المؤمنين حين ترى هذه المقاريض الجارفة للدين والإسلام، ولكنها سَرعان ما تلين حين تسمع وترى مصداق قول الله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [التوبة: ٣٢، ٣٣].

وهل لنا أن ندرك قيمة النور إلا إذا عاينَّا من تقلَّبَ في الظلمات.

(١) ينظر: قضايا في نقد العقل الديني لمحمد أركون (ص٢٨٣ وما بعدها).

(٢) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب لمحمد أركون (ص٢٢).

(٣) مفهوم النص لنصر حامد أبو زيد (ص٢٤).

مكانة الوحي في الفكر الإسلامي

يُعتبر الوحي محورًا أساسيًا من محاور الأديان السماوية والدين الإسلامي خاصة؛ ولو ألغي مفهوم الوحي أو حُرِّف عن وجهه الصحيح لنُزع من دين الإسلام والقرآن خاصية الإلهية والتعالي على البشرية، وانتفت عنه العصمة والإعجاز بضروبه وأنواعه، ولم يَصدُق عليه قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩]، ولم يكن مباينا للمنتجات البشرية، بل صار مكتسبا بالمران والمراس، ولأصبح القرآن مغمورًا في وسط المعارف البشرية غير متميز عنها.

إذن الوحي هو النواة الجوهرية الذي على أساسه يعتبر الدين إلهيا معصوما؛ حيث إن الله هو من أنزلها بخلاف ما كان من وضع البشر.

ولذا نجد مؤرخي الأديان يفرِّقون بين الأديان السماوية والأديان الوضعية، وأن ما نزل من رب الأرض والسماوات ليس كما صدر عن مخلوق من المخلوقات.

وليس نزع سمة الإلهية عن الدين الإسلامي هو غاية ما في تحريف مسألة الوحي، بل بذلك سيكون طريق الحق وعرًا، والوصول إلى الخالق عسيرًا، وتُطبق الحيرة على الإنسان إطباقًا، فينتهي الحال إلى إنكار وجود خالق للإنسان هادٍ له.

ولما كانت هذه النتيجة الحتمية جرَّاء إنكار الوحي، استنكر رسل الله على من شكُّوا فيما جاؤوا بقولهم: {أَفِي اللَّهِ شَكٌّ} [إبراهيم: ١٠]، فالشكُّ في الرسول يؤدي إلى الشكّ في المرسِل[١].

وقد كشف الله تعالى هذا السبيل الإغوائي لأعداء الدين، حيث يبدؤون كما أخبر الله عنهم بتكذيب الوحي وينتهي بهم الحال إلى إنكار الله تعالى، كما قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨٢).

بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الطور: ٣٣] إلى أن قال: {أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الطور: ٤٣].

ويا سبحان الله! أبعد معاينتنا لمن سلك هذا الطريق من معرِضي زماننا عن الوحي ووصولهم إلى ذات النتيجة نحتاج إلى برهان.

ولكل ما سبق نجد القرآن يولِي مسألة الوحي غاية الأهمية، ويعتني بها أيما عناية، فقد فصَّل صفته وجلَّى كنهه وحقيقته، ولم تكن السنة النبوية والآثار بمنأى عنه أيضا، بل تضافرت له جهود الصحابة والسلف، ووضعوه نصب أعينهم، وحاجُّوا كل من حوَّر هذا المفهوم عن حقيقته، وحاوروه وأبطلوا حجته.

ولا إخالك هنا -وأنت طالب للهدى- أن بواعث قلبك قد أقبلت تسأل، **ما مفهوم الوحي عند السلف إذن؟**

مفهوم الوحي عند السلف

إذا ما أردنا أن نعرف حقيقة هذا المفهوم، فلنتجه مباشرة إلى مصدره ومنبعه لنسمع منه -سبحانه وتعالى- أوَّلا؛ فنعرف كنهَ دعواه، ونسبر غورها، ونستكشف حججها ودلائلها.

تدبَّر كلام الله سبحانه وهو يصف الوحي بقوله: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم ١-١٠]، وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، ما أوضح هذه الآيات وأبينها دلالةً وتأكيدًا على أن القرآن وحي مُنزَّل من رب العالمين نزل به جبريل أمين السماوات على قلب نبينا صلى الله عليه وسلم أمين الأرضين بلغة عربية واضحة البيان مسموعة للآذان.

فحقيقة الوحي إذن أن يصطفي الله سبحانه وتعالى أحدًا من عباده ويُعلمه بالنبوة، ويخبره بما أراد من الهدايات وأمور الدين والدنيا بطريقة سريعة وخفية(١).

فالوحي إذن كلام الله تعالى فهو متعالٍ ومغايرٌ لكل المعارف والمنتجات الأرضية، ولا علاقة له بتاريخ أو زمان أو مكان بل هو فوق التاريخ، وأيضا ليس هو أمرا كسبيًّا حتى يكتسب بالرياضات والاجتهادات البشرية، وإنما {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [الحج: ٧٥]، فإلقاء الوحي اصطفاء من الله سبحانه وتعالى لمن شاء من عباده، وليس للنبي المصطفى أي دور في إنشائه أو إلزام الناس به، بل ليس عليه سوى البلاغ، قال تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: { يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: ٦٧].

وليست مهمة تحمُّل الوحي وتبليغه للناس بالأمر الهيّن، فإن الملائكة تُرعَد فرائصها وتُصعق وتخِرُّ سجَّدا من سماع كلام رب العالمين، بل ترتجف السماوات وأهلها(٢)، فما ظنك ببشر ضعيف صغير.

فإذا كان هذا حال هذه المخلوقات العظام، فكيف كان حال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حين بدء الوحي؟

---

(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (١/ ٦٣)، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص: ٢٩)، وأما أصل مادة الوحي في اللغة، فقد قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة في مادة (وحى): "الواو والحاء والحرف المعتل أصل يدل على إلقاء علم في خفاءٍ، أو غيره إلى غيرك. فالوحي: الإشارة، والوحي: الكتابة والرسالة، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى عَلِمَهُ فهو وحي؛ كيف كان"

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٤٧٠١).

كان بدء الوحي مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالرؤى والمنامات الصادقة؛ إذ هو أخف وطأً وأقوم سبيلًا لما فيه من التدرج والترفُّق بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ حتى يتهيأ لتحمُّل الوحي المشاهد يقظة(١).

وفي هذا تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه ... حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»" إلى أن نزلت عليه أول آية في القرآن وهي قوله تعالى: {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم} [العلق: ٢] (٢).

ولما كانت هذه المرحلة مرحلة تمهيدية لم ينزل فيها شيء من القرآن، فلم ينزل شيء من القرآن منامًا(٣)، بل كل القرآن وحي مسموع من جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

ولا نظن أنا نجلّي لك كيفية الوحي بأفصح من جواب النبي صلى الله عليه وسلم حين سُئل، فقال: «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول»، وانظر إلى عائشة –رضي الله عنها– وهي تصف شدته، فتقول: "ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا"(٤).

فقد كان يعاني من الوحي شدةً، وكان الصحابة يرونه قد احمرَّ وجهه فجأة وأخذته البُرَحاء حتى يتفصد جبينه عرقًا، وثَقُل جسمه حتى يكاد يُرضُّ فخذُه فخذَ الجالس إلى جانبه

---

(١) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ٩).

(٢) صحيح البخاري (٣).

(٣) وقد ضل في هذا الفلاسفة المنتسبون إلى الاسلام وغيرهم ممن جعل الوحي محصورًا في النوع الإلهامي والمنامي مما يؤول إلى إنكار النبوة والتسوية بين الوحي وغيره، ينظر: الفصل في الملل والنحل لابن حزم (١٧/٥)، مجموع الفتاوى لابن تيمية(٣٩٨/١٢ وما بعدها).

(٤) صحيح البخاري (٢).

وحتى لو كان راكبًا لبرَكَت به راحلته، وفي هذا يقول ابن عباس رضي الله عنه: "كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعالج من التنْزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه. قال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يحركهما، وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرَّك شفتيه. فأنزل الله تعالى: {لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ *إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [القيامة: ١٦ - ١٧]"(١).

وهنا وقد لاح لك مما مضى لون أو اثنان من أطياف الوحي، لعلك تتشوف إلى رؤية باقي الأطياف، ونحن لا نمتري أنا لن نجد لك أوضح وأوجز من نص القرآن في ذلك حيث يقول تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ} [الشورى: ٥١].

فمن الوحي ما يكون إلهامًا يقذفه الله في قلب مُصطَفاه على وجهٍ من العلم الضروري لا يستطيع له دفعًا ولا يجد فيه شكًّا، ومنه ما يكون منامًا صادقًا يجيء في تحقُّقه ووقوعِه كما يجيء فَلَقُ الصُّبح في تبلُّجه وسطوعه، وهذان الصنفان غير مسموعين.

وأما الوحي المسموع: فمنه ما يكون كلامًا مباشرًا بين العبد وربه؛ كما كلَّم الله موسى تكليمًا، ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل - عليه السلام - وهو من أشهر أنواع الوحي وأكثرها، وهو الذي به نزل القرآن كله(٢).

وفي هذا يقول الإمام الزهري رحمه الله: "نزلت هذه الآية تعم من أوحى الله إليه من البشر. فكلام الله الذي كلم به موسى من وراء حجاب والوحي ما يوحي الله إلى النبي من أنبيائه عليهم السلام ليثبت الله عز وجل ما أراد من وحيه في قلب النبي ويكتبه وهو كلام الله ووحيه ومنه ما يكون بين الله وبين رسله ومنه ما يتكلم به الأنبياء ولا يكتبونه لأحد ولا يأمرون بكتابته ولكنهم يحدثون به الناس حديثا ويبينونه لهم؛ لأن الله أمرهم أن يبينوه للناس ويبلغوهم

(١) أخرجه البخاري برقم (٥).

(٢) ينظر: الفصل في الملل والنحل لابن حزم (١٧/٥).

إياه ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء ممن اصطفاه من ملائكته فيكلمون به أنبياءه من الناس ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء من الملائكة فيوحيه وحيا في قلب من يشاء من رسله"[١].

والوحي من أمور الغيب التي اختص الله بها أنبياءه؛ ولذا فالمبالغة والاجتهاد في تقريب صورة الوحي إلى الأذهان بأمر من الأمور المحسوسة غير دقيق، ولا يمكن تقريب صورة الوحي بذلك، كما فعل بعض المعاصرين[٢] .

وبهذا نوقن أن القرآن كلام الله سبحانه المنزَّل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: ٦]، والله سبحانه تعالى متصف بصفة الكلام على ما يليق بجلاله وكماله سبحانه كما قال تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: ١٦٤].

وأما النبي صلى الله عليه وسلم فليس له أي شأن في تعديله فضلا عن إنتاجه، بل نزل القرآن مؤثرًا ومغيّرا ومخرجًا للبشرية من الواقع المظلم الذي كانوا فيه، فضلًا عن أن تتأثر ببشريته وأحواله النفسية والاجتماعية أو ظروفه الزمانية والمكانية، كما قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [إبراهيم: ١].

ومعنى هذا أن القرآن ليس منتجا خارجا من واقعه وثقافته، بل هو هابط من رب العالمين ليرتقي بواقع قريش إلى أعلى عليين، ويُهيّئهم لقيادة البشرية إلى بر الأمان ونعيم الجنان، وقد حصل ما وعدهم الله، إذ أذعنوا له فأذعنت لهم الأمم وانقادوا[٣].

---

(١) أخرج بعضه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٨١٨/٩)، وأورده بتمامه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٩٧).

(٢) المحرر في علوم القرآن لـ د. مساعد الطيار (ص: ٦٢).

(٣) وللاستزادة ينظر: تاريخية النص القرآني ورقة علمية صادرة عن مركز سلف للبحوث والدراسات http://salafcenter.org/642/.

إذا استوعبنا هذا، **ففيم يختلف الحداثيون عن السلف وهم يؤمنون بالوحي؟**

مفهوم الوحي عند الحداثيين

صحيحٌ أن الحداثيين يسلِّمون بدعوى نزول الوحي ويصرِّحون بالإيمان به كما مر معنا في أول هذه الورقة، ولكن شتَّان بين الوحي الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به المؤمنين، وبين مفهوم الوحي الذي ادّعوا الإيمان به وراموا فيه التلفيق بين الوحي النبوي وأفكار الحداثة الغربية.

وهذا الأسلوب الخداعي الترويضي –إظهار الإيمان بشيء مع عدم التسليم به في الحقيقة– هو دأبهم في تعاملهم مع أصول الدين ومسائله التي لا تتفق وأفكار أساتذتهم من الفلاسفة الغربيين؛ ذلك أن المرحلة الحالية –كما يقولون– لا تحتمل التصريح بمناقضة الدين وأصوله؛ لأن تلك الأصول مغروسة في العقل الإسلامي غرسًا ومسلَّمٌ بها من منظور دوغمائي[١] وتشكل تركيبتها الاجتماعية والثقافية وانتمائها التاريخي ومن ثمَّ لا يصح التصادم معه وإنما ترويضه وتطويعه حتى تتم السيطرة عليه[٢]، يقول أركون: "ما كان قد قُبل وفسِّر وعيش عليه بصفته الوحي في السياقات اليهودية والمسيحية والإسلامية ينبغي أن يدرس أو يقارب منهجيا بصفته تركيبة اجتماعية لغوية مدعمة من قبل العصبيات التاريخية المشتركة"[٣].

ولنتصور مفهوم الوحي عند الحداثيين لا بد أن نعرف أن الحداثيين كثيرًا ما يشنِّعون على اتجاهين في قضية الوحي[٤]، وهما:

(١) الدوغمائية أو الدوغماتية: هو التعصب لفكرة أو اعتقاد معين دون أي قبول لمناقشتها أو الشك فيها، وتُستخدم أحياناً للإشارة إلى الجمود الفكري، أو التشدد في الاعتقاد الديني أو المبدأ الأيديولوجي.

(٢) ينظر: موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام لـ د. محمد القرني (ص٢٩٢)

(٣) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني لمحمد أركون (ص٢١).

(٤) ينظر: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني لمحمد أركون (ص ١٠٥ وما بعدها).

١- الموقف الأصولي التقليدي السطحي -على حد تعبيرهم- وهم الذين يدَّعون أن الوحي كلام الله المنزل الذي نزل به جبريل عليه السلام إلى النبي الموحى إليه -عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين- ويقصدون به (المفهوم السلفي).

٢- الموقف الفلسفي: والذي عالج هذا المفهوم بمناهج ومسلمات الفلسفة اليونانية، فكان أن أنكروا النبوة ظاهرًا وباطنًا، ومع أنه وجدت بعض الآراء الفلسفية التي تدَّعي الإيمان بالوحي إلا أنها في حقيقة أمرها حرَّفت المفهوم الصحيح للوحي، فهي تدَّعي أن الوحي نابع من الإنسان وقواه المكتسَبة بالرياضات والمراس، وأن لا فرق بين الفيلسوف والنبي؛ إذ كلاهما مكتسِب كمالًا بشريًا، فمآل هذا القول كما ترى هو إنكار النبوة[١].

والحداثيون لا يرتضون لأنفسهم واحدًا من هذين الاتجاهين، وإنما يرون أن الطريق الأقوم لدراسة ومعالجة قضية الوحي وغيره من القضايا الدينية هو استخدام المناهج البحثية الحديثة لدراستها[٢]؛ مثل: منهج التاريخية[٣] والأنثربولوجية[٤] والألسنية[٥] والسيميائية الدلالية[٦] والتفكيكية[٧].

---

(١) ينظر: النبوات لابن تيمية (١٦٨ وما بعدها)، الجواب الصحيح له أيضا (٣/٣٠٢ وما بعدها)، إغاثة اللهفان لابن القيم (٢٦١ وما بعدها) هذا بالنسبة لبعض الفلاسفة الإسلاميين، وأما غالب الفلاسفة فهم منكرون للنبوة كما أسلفنا خاصة أرباب الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ينظر: العقل والتاريخ والوحي لـ د. محمد المزوغي (ص ١٠٢ وما بعدها).

(٢) ينظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي لـ محمد أركون (ص٦١).

(٣) التاريخية: كلمةٌ من وضعِ الحداثيين العرب في مقابل مصطلح (Historicisme) الإنجليزي وهو (مذهب وجودي هدمي يؤمن بنسبية المعارف والقوانين والأحداث والأفكار والقيم بكونها نتاجا خاصا لسياق وضعي تاريخي معين. ينظر: تاريخية النص القرآني ورقة علمية صادرة عن مركز سلف للبحوث والداراسات http://salafcenter.org/642/ .

(٤) الانثروبولوجي: علم يبحث في مراحل تطور الإنسان، وأصله الخلقي، كما يبحث في تطوره الاجتماعي والثقافي.

(٥) الألسنية: علم تطور اللغات البشرية، وعمليات الاتصال، على خلاف ما كان معهوداً في السابق.

(٦) السيميائية أوالسيمانتية: علم الدلالة، وهو علم حديث يبحث في الدلالات اللغوية، يدرس المعاني اللغوية على صعيد المفردات والتراكيب، وما يتبعه من تطور لهذه المفردات بعيداً عن الاشتقاقات التاريخية لها.

(٧) التفكيكية منهجٌ فلسفي، يرى أنه لا يوجد تفسير واحد للمعنى في النص، بل تفسيرات غير محدودة، فبعد أن ظهرت التفكيكية إلى الوجود، أصبحت النصوص عُرضةً لنوع جديد من التحليل والتفسير.

ويتدؤون هذا الطريق الثالث –الذي يعتبره الحداثيون طريقًا وسطًا بين المنهجين– بجعل الوحي مجرد (ظاهرة) وليست حقيقة متعالية مطلقة، وإنما يتعامل معها على أنها ظاهرة مرتبطة بتاريخ مجتمعها وجغرافيته، ومن ثَم تُدرس تحت الآليات والمناهج الحديثة مثلها مثل غيرها من الظواهر(١).

وبعد أن يُقرِّروا أنها ظاهرة كغيرها من ظواهر العلوم الإنسانية، يبدؤون بالبحث في أسباب هذه الظاهرة وأصولها، وهنا يرجِّح أركون أنَّ منبعها (الخيال)، وهي في منظور العلوم الإنسانية الحديثة: الأفكار التي تعتبر لا واعية ولا عقلانية، وإنما متعلقها الانفعالات والعواطف والانطباعات(٢).

وفي شرح هذا الخيال وكيفية تكوُّنِ الوحي منه يقول عبد المجيد الشرفي: "لقد كانت المعلومات التي تلقاها محمد [صلى الله عليه وسلم] من حوله، واطلع عليها في أسفاره وعن طريق الأحناف أو أهل الكتاب مما كان يبلغ إلى مسامع معاصريه من دون أن يولوه أدنى أهمية؛ لأنه خارج عن آفاقهم الذهنية ومشاغلهم، ومن نتائج تأمله الطويل عندما كان ينقطع عن الناس ويتحنث في غار حراء. كان كل ذلك المادة التي تخمرت في ذهنه ووصل بها إلى اليقين بأن الله اصطفاه لتبليغ رسالته" إلى أن قال: "وبما أن محمدًا كان يعيش في عالم تغلب عليه القداسة أو الصبغة السحرية حسب المفهوم الفيبري(٣)...وأن الذهنية الميثية التي من أبرز خصائصها الحدس والتمثل كانت مسيطرة آنذاك لدى جميع الشعوب وفي كل الثقافات، فلن نستغرب أن نجد آثار هاتين الخاصيتين في ما يبلغه إلى قومه وإلى المسلمين" ثم بعد إسقاط هذه الآليات والمفاهيم على الوحي يذكر لنا مفهومه للوحي، فيقول: "الوحي إذن هو مصدر علم النبي [صلى الله عليه وسلم]: أي تلك الحالة الاستثنائية التي يغيب فيها الوعي، وتتعطل

---

(١) في قراءة النص الديني لـ عبد المجيد الشرفي وآخرون (ص٤٢).

(٢) ينظر: معجم العلوم الإنسانية لـ(جان فرانسوا دورتيه) (ص٣٧٢ وما بعدها).

(٣) نسبة إلى (ماكس فيبر الألماني –١٩٢٠م) عالم في الاقتصاد والسياسة، وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث ودراسة الإدارة العامة في مؤسسات الدولة.

الملكات المكتسبة، ليبرز المخزون المدفون في أعماق اللاوعي بقوة خارقة لا يقدر النبي [صلى الله عليه وسلم] على دفعها ولا تتحكم فيها إرادته"(١).

وهذا الخيال لو تصورنا حقيقته فلا بد أن يرتكز على أسطورة لا على الحقيقة!! ولذا فإن أركون يدَّعي أن القرآن خطاب أسطوري البنية!(٢)

ولكن أركون يلطِّف هذا المصطلح ويحشوه ببعض الطلاءات التي تخفي عواره؛ بدعوى أنه لا يقصد من مفهوم الأسطورة ما شاع في لسان العرب والقرآن (الخرافة)، وإنما يريد الأسطورة كأحد مفاهيم الأنثربولوجيا الاجتماعية والثقافية التي تكون مُحتوية على جزء ولو ضعيف من الحقيقة، لكن تدخل المخيال الشعبي أو التراث يضخمها ويخرج بها عن واقعيتها(٣).

وهذا المخيال الشعبي والتضخيم هو مصدر تعالي القرآن وسيادته وسلطته ونزع ارتباطه بالتاريخ بدعوى أنه كلام الله؛ وهو أمر ضروري لتجييش الجماهير.

وفي هذا يقول أركون: "وظيفة التعالي التقديسية التي تؤمنها ذروة التشريع أو التسويغ هي ضرورية جدًا بالنسبة للمخيال الاجتماعي. أقصد بذروة التسويغ هنا أو السيادة العليا سلطة القرآن الذي يمثل كلام الله أو هيبة النبي واحترامه.. تعاش هذه السيادة العليا من قبل الجسد الاجتماعي (المجتمع ككل) وينظر إليها وكأنها مرجع فوق بشري أو فوق فردي أي يتجاوز البشر والفرد" ويشرح لنا هاشم صالح قول أركون هذا بقوله: "إن الأسطورة أو التركيب الأسطوري للحكايات الشعبية ليس وهما أو خيالًا صرفًا كله وإنما يستند على أساس من الواقع يشبه النواة المركزية المغلفة بغلافات من صنع الخيال...إننا نقصد التركيز على أهمية البعد النفسي

(١) الإسلام بين الرسالة والتاريخ لعبد المجيد الشرفي (ص٣٤ وما بعدها)، وقارن بين هذا وبين أقوال الفارابي وابن سينا في مفهوم الوحي، ثم انظر هل من فرق في غير الألفاظ؟! ينظر: آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي (ص٧٦)، فصوص الحكم للفارابي (ص٣٧)، الشفاء في الإلهيات لابن سينا (ص٤٣٥)، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، د. إبراهيم مذكور (ص١١٢ وما بعدها).

(٢) ينظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي لمحمد أركون (ص١٠).

(٣) ينظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي لمحمد أركون (ص٢١٠).

أو الخيالي الذي يميل إلى المبالغة والتضخيم في حياة الأفراد والجماعات. إنه موجود وفعال ومجيّش للجماهير خصوصا المجتمعات البدائية والمتخلفة. مثلما هو موجود في العامل الاقتصادي المادي وربما أكثر...إن التاريخ لا تصنعه فقط أو تحركه الأحداث المادية الواقعية التي جرت بالفعل وإنما تصنعه أيضا الخيالات والأوهام التي تصاحب هذه الأحداث عادة أو تسبقها أو تأتي بعدها. إن الأسطورة هي إحدى محركات التاريخ تمامًا كالصراع الطبقي أو كالعامل الاقتصادي"(١).

ونفهم من هذا أن الفرق بين معنى الأسطورة في لسان العرب ومعناه في مفاهيم العلم الحديث هو في كونه محرِّك وصانع للتاريخ ليس إلا.

فالقرآن والوحي أسطورة ولكنه يختلف عن غيره من الأساطير لكونه موظَّف للتأثير على المجتمعات وصنع التاريخ وشحن العزائم**!!**(٢).

ولأن الوحي عنده مجرد خيال بشري إنساني فإنه لا اختلاف عنده بين الأديان السماوية والوضعية على عكس ما يقرره علماء الأديان من تقسيمها إلى سماوية ووضعية، وفي ذلك يقول أركون: «تحديدنا الخاص عن الوحي يمتاز بخصيصة، وهي أنه يستوعب بوذا وكونفوشيوس والحكماء الأفارقة، وكل الأصوات الكبرى التي جسدت التجربة الجماعية لفئة بشرية ما من أجل إدخالها في قدر تاريخي جديد"(٣)

إذن خلاصة القول أن الوحي عند هؤلاء مجرد ظاهرة ناشئة عن خيالات وانطباعات النبي صلى الله عليه وسلم، حيث يدخل في حالة استثنائية لا واعية، تتعطل فيها الملكات المكتسبة، ليبرز المخزون المدفون في أعماق اللاوعي بقوة خارقة**!!**

---

(١) نزعة الأنسنة في الفكر العربي لمحمد أركون (ص٦٣١).

(٢) ينظر: موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام د. محمد القرني (ص٣٠٢).

(٣) الفكر الإسلامي نقد واجتهاد لمحمد أركون (٨٤).

إبطال التفسير الحداثي للوحي

إن مجرَّد تصور هذا التأويل لوحي الله تعالى إلى الأنبياء كفيلٌ بمعرفة بطلانه، خاصةً إذا عرفنا أن منطلق الفكر الحداثي هو الخنوع لمنطق الحداثة الغربية ليس إلا، وتطويع مفهوم الوحي الإسلامي إلى ما يتوافق مع ذلك الفكر ويمهد الطريق لدخوله إلى قلب العالم الإسلامي؛ لأن الوحي بالمفهوم السلفي يعتبر عائقا أمام النهضة كما يراها الحداثيون وإن شئت فقل أمام دخول الحداثة الغربية، وما أشبه الليلة بالبارحة.

فإن هذه المحاولة التي يخوضها الحداثيون اليوم ليست جديدة على الفكر الإسلامي، بل هي محاولة مستنسخة تماما من محاولة الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام الذين راموا تطويع مفهوم الوحي للنظريات الفلسفية اليونانية كالفيض والصدور والمخيلة.

وهؤلاء جمعوا سوآتهم كلها بدءًا من اتهامِ القرآن بأنه أرْضيّ منبعُه نفس محمد صلى الله عليه وسلم، ودعوى أنه بشري مستوحى من البشر وأنه تاريخي كغيره من الظواهر التاريخية، وما ذاك إلا ليُخضعوا مفهوم الوحي لنظريات الفلسفة المعاصرة؛ كالتحليل التاريخي والأنثربولوجي ومقارنة الأديان.

فالطريق ذات الطريق الذي سلكه الفلاسفة من قبل والنتيجة ذات النتيجة وهي إنكار الوحي والنبوة.

وكان عليهم لو كانوا طلابًا للهدى وباحثين عن الحق أن يسلكوا المنهج المتناسب مع القرآن كي يفهموه، وأن ينظروا في الوحي وظروفه وأحواله وأدلته وقرائنه كي يستوضحوه، لا أن يأتوا بمنهج يخص العلوم الإنسانية –وإن شئت فقل العلوم الغربية المحدثة– فُتنوا به، ثم يلووا له أعناق النصوص الإلهية، فإن لكل شيء مقياسًا يناسبه وميزانا يوزن به.

إن هذا أشبه بمن يسأل: كم عدد كيلوات الماء الموجود في الكوب!! أو كمن يريد أن يفهم نظريات آينشتاين بمصطلحات أطباء تشريح أعضاء الإنسان، أو يريد أن يفهم مصطلحات ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل بمفاهيم ابن الهيثم.

أهذا هو طريق النهضة والخروج من المأزق الذي تعيشه الأمة اليوم!![1].

الحق أننا رأينا كيف نهض السلف والمسلمون حين فهموا القرآن والوحي بالمنهج الإلهي والنبوي الرصين، أم ظنوا أن ذلك المنهج ليس فيه ما يشفي الغليل ويروي العليل؟! أم جهلوا بما فيهما؟!

الذي نشاهده في النصوص القرآنية والنبوية أنها كثيرًا ما تعرّج على هذه المسألة –مسألة الوحي– وتعطيها أبلغ الاهتمام.

وعجبًا لهؤلاء القوم، لم يجدوا للتشكيك في القرآن إلَّا شبهات فنَّدها القرآن نفسه قبل آلاف السنين وعفا عليها الدهر وتعفَّنت مع جيف أصحابها ممن هلك في عصر النبي صلى الله عليه وسلم؟!

إن كنت ممن يقرأ القرآن فلا إخالك بحاجة إلى شواهد على ذلك، وإلا فدونك آيات القرآن اعقلها وتدبَّرها، اقرأ إن شئت قوله تعالى{قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ} [يونس: ١٥ – ١٧]، وقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦) وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا } [الفرقان: ٤ – ٩]، وقوله تعالى: { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ

(١) ينظر: موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام لـ د. محمد القرني (ص٣٣٢)

لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل:١٠١– ١٠٣].

أما عن مصدر القرآن فنجد القرآن ذاته يلحُّ كثيرًا أنه منزَّل من الله سبحانه وليس نابعا من عندِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، بل ويؤكد هذا الأمر بالقسم وغيره من المؤكدات حيث يقول: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [التكوير: ١٩ – ٢١] ذلكم هو جبريل –عليه السلام– تلقاه من لدن حكيم عليم، ثم نزَّله بلسان عربي مبين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، فتلقَّنه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصًّا من النصوص، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا: الوعي والحفظ، ثم الحكاية والتبليغ، ثم البيان والتفسير، ثم التطبيق والتنفيذ.

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فليس له من أمرهما شيء، {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم ١–١٠].

فأما المعاني فقد نص القرآن أنه لا يملك لها تبديلا ولا تحويلا فضلا عن أن تكون اختراعا وإبداعا من خياله: {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} [يونس: ١٥]، وأما الألفاظ فهو يتلقنها ويتلقاها وهي تهبط إليه لا أنه هو يصعدها من نفسه، قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}، { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٦ – ١٩]، {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى} [الأعلى: ٦].

هذا عن القرآن في نفسه، فماذا عمَّن جاء بالقرآن صلى الله عليه وسلم؟

دعنا إذًا نبحث في الأسباب المادية والظروف الواقعية لحياة النبي صلى الله عليه وسلم وتاريخه وأوضاعه النفسية والاجتماعية، علنا نظفر بشيء يدلنا على حقيقة الوحي والقرآن.

عاش النبي صلى الله عليه وسلم أميًّا لا يقرأ ولا يكتب حاله حال غيره من العرب في الجزيرة، فهو أمِّيٌّ بين الأميين ولا غرابة، ولكن الغريب أن يزعم أحد أن هذا الرجل الأمي الذي

عاش بين الأميين معزولا عن العلم والقماطر والصحف، بل مشغولًا برزق نفسه وزوجه وأولاده، راعيًا بالأجر، أو تاجرًا بالأجر؛ يصدر عن خياله فجأة أخبار الأولين والآخرين بكلام في منتهى الدقة والفصاحة، ويصف تلك الأحداث كأنها رأي عين!! فهل يُعقل أن هذا من خيال ذلك النبي صلى الله عليه وسلم؟!

ثم إنه كان بشرًا يعيش ظروف الحياة وتمرُّ به صلى الله عليه وسلم المعضلات والمهلكات من المآزق والمشكلات، فلم لم يتأثر شيء من القرآن بظروفه وأحواله النفسية تلك إن كانت صادرة عن نفسه!!

انظر في قصة الإفك كيف رُميت زوجُه عائشة رضي الله عنها وأحب الخلق إليه واتُّهمت بالزنا، وخاض الخائضون في عرضه، واشتد الخطب على نفسه وعلى زوجه، ولكننا نجد القرآن يفتر في تلك الفترة ويتراخى!!

ولو كان القرآن من خياله ألم يكن من المنطقي أن تتسارع الآيات من خياله وهو في تلك الحالة، فيحسم المسألة، ويطمْئن النبيُّ صلى الله عليه وسلم زوجَه؟

ولكن ذلك لم يكن، بل ذهب النبي صلى الله عليه وسلم يبحث عن حالها ويسأل عنها الناس، ومضت الأيام تلو الأيام والهم يلاحِق النبي صلى الله عليه وسلم وزوجه ويعانيان شدته!!

ثم تأمل كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يخاف من نسيانه، فيحرِّك به لسانه ويعجَل به حتى تكفَّل الله له بحفظه وعدم نسيانه بقوله: { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٦ – ١٩].

بل تدبّر كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم تنزل عليه الآيات أحيانا ثم ينتظر فهمها ومعانيها، كما حصل في قول الله تعالى: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ} [البقرة: ٢٨٤] حيث كان عاتب النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة حين استثقلوه حتى بيَّن

الله المقصود بقوله: { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦]، بل انظر كيف يغيِّر صلى الله عليه وسلم مسار الجيش بأكمله مع تضافر الأسباب المادية لانتصاره؛ فقط لآيات قرآنية نزلت عليه الله سبحانه وتعالى، كما ما حصل في صلح الحديبية، ولخَّص صلى الله عليه وسلم حاله مع القرآن في كلمتين فقال: "إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري"(١).

فلو كان الوحي مرتبطا بنفسه وخياله، فكيف يصدر عنها شيئا لا تعيه، أو تنتظر فهمه، أم كيف يخطط ويرتب للغزو، ولما ينتصر ويتغلب يغيرُ الوحي كل ذلك!!

وإن سلمنا جدلا بأن هذا النبي الأمي استخرج لنا هذا القرآن (الأسطورة العلمية) من لدن خياله المدفون مما عاشه، فهل يُعقل أن يخرج من عصر الظلم والانحطاط الأخلاقي والتفكك الاجتماعي خيالًا يبني به نظامًا دينيًا مُحكمًا فكريًا وسلوكيًا؛ ليرتقي بالبشرية إلى أفضل السبل وأنجع الطرق؟!

هذا النظام الذي طالما حاول العابثون أن يُحدثوا فيه ثغرة فلم يستطيعوا، وكم من السنون مرَّ عليه ولم يتزحزح، فهل كان هذا النظام الديني أيضا من وحي خيال أمّيٍّ تنقَّل بين الرَّعي والتِّجارة وعاش فترة الظلم والوحشية الجاهلية؟!

مع أنه لم يكتفِ بإظهار ذلك النظام المحكم، بل أرفقه بالوعود والبشارات المؤكدة بأن ظروف الزمان لن تقهره، وأن أحداث التاريخ لن تغيره، فارجع البصر وانظر حولك، هل ترى هذا الحفظ بأم عينيك اليوم بعد أربعة عشر قرن من الزمان؟!

أليس القرآن الموجود في مشرق الأرض هو ذات القرآن المتلو في مغربها، هل تغير منها حرف واحد؟

هذا لعمري كفيل بأن توقن بأنه {كِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤١، ٤٢].

---

(١) صحيح البخاري (٢٧٣١).

بيد أن القرآن لم يكن هذا غايةُ ما أَخبرنا به عن نفسه، فإضافةً إلى الوعد بالحفظ، تحدَّى البشرية بأن يأتوا بصنو له فضلا عن مناوئ! ويجزِم بأن ذلك لم يكن بل لن يكون!! فهل هذا الوعد أيضا يمكن أن يصدر من خيال أمِّي يتيم مشغول بقوت يومه؟!

أضف إلى كل ما سبق أن في القرآن أمورًا دقيقة وأخبارًا غيبية يصعب الوصول إليها بذكاء العقل وقوة مدركات الحس؛ كعدة مكثِ نوح –عليه السلام– في قومه، وعدة مكثِ أصحاب الكهف وعدة انتصار الروم على الفرس، وأطوار الجنين في الرَّحم.

فهل الخيالات والانفعالات النفسية جادت لمحمَّد –صلى الله عليه وسلم– بكل ما في هذا القرآن العظيم؟!

وبعد أن بان لك أن دعوى كونه من خيال محمد صلى الله عليه وسلم ردَّ عليها القرآن وفنَّدها، تأمَّل.

هل جاؤوا بشبهة جديدة لم تطرقها قريش ولم يردَّ عليها القرآن؟

كلا والله، فقولهم بأنها أسطورة ردَّ الله عليها شبهة قديمة يقول تعالى: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفرقان: ٥]، فمن أولئك الذين يجدهم وسط أمية مكة ليكتتب عنه الأساطير؟! وما هي تلك الأساطير التي يمكن أن تأتي بمثل هذا القرآن وما فيه وقد عجز البشر عن مثله؟!

ومن أولئك الذين استوحاها منهم وكانوا معلِّميه، ولِم لم يذكر التاريخ أنه تعلَّمه منهم، بل لمَ لم يبرز ذلك الكتابيّ إلى العالم ليثبت أن محمَّدا أحد تلاميذ القساوسة النصارى؟! وأين هم أعداء النبي صلى الله عليه وخصومه مذ ذلك الزمان ليحتجُّوا عليه بهذه الحجة ويلصقوا به هذه التهمة، على أنهم حاولوا أن يتهموه بتعلمها من حداد رومي جدلا ولجاجا، فقالوا: {إِنَّمَا

يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} [النحل: ١٠٣] وما أبلغ ردَّ القرآن عليها {لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل: ١٠٣][1].

هذا ما في القرآن، ولكن الحداثيين تعامَوا عن كل تلك الحقائق والشواهد القطعية، وراحوا يصوِّرون لنا بأن الوحي مجرَّد ظاهرة لا تختلف عن غيرها من الظواهر العرضية في الواقع والتاريخ، وكأن القرآن لم يأت بشواهده ودلائله معه!!

ولكن حسبنا أنَّ دعاواهم جيف منتنة وحجج مغبرة ومزاعم ملفوظة من لدن عصر النبوة، فما هذه الافتراءات الحداثية بجديدة على المسلمين، فأكثر اتهامات قريش للوحي هو دعوى كونه من عند نفس محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنهم لم يقرَّ لهم قرار في ذلك، بل كانوا متقلِّبين تقلُّب المجادل اللَّجوج المحتار غير المطمئن إلى طرحه وردوده وأدلته، ولا أبلغ لحالتهم تلك من وصف القرآن إذ يقول: {بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ} [الأنبياء: ٥].

الخاتمة

الوحي ليس ظاهرة عارية عن الدلائل والبراهين كما يريد الحداثيون أن يصوروه؛ ليزعموا بعد ذلك أنه أسطورة من فيض خيال النبي صلى الله عليه وسلم، وتأثره بمن لقيه من أهل الكتاب.

بل تضافرت وتعاضدت الأدلة على كونه وحيا منزلا من عند الله سبحانه وتعالى لفظا ومعنى نزل به جبريل الأمين على نبينا محمد الأمين فتلقَّنه وحفظه ثم بلغه وأذعن، والدلائل على هذا كثيرة، يكفيك منها قول الله تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٦٠٣)، النبأ العظيم لـ د. محمد دراز (ص: ٨٥).

والحمد لله الذي أنزل علينا قرآنا محفوظ لفظا ومعنى، وحرَّر وفنَّد الشبهات التي ترِد عليها قبل أن ترِد، فجلَّ ما استطاعه الحداثيون -مع جهدهم الجهيد- أن يردِّدوا تلك الشبهات، {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: ٨١، ٨٢].

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.